تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

بين أزمة الكتب وأزمة القراء :

«لست أدرى لماذا آثر هذا القارئ الصديق أن يخفى إسمه ؟» بهذا السؤال المشرئب إلى جوابه بدأت تعقيبك اللابق على دفاع قارئ صديق عن القراء . ثم تفضلت فأبديت رأيك فى الدفاع «شكلا» وفى القارئ «موضوعا» . فما كان أكرم شعورك وأحسن ظنك إذ تقول «لقد دافعت دفاعا حارا عن القراء ، لأنك قارئ مثالى ينظر إلى غيره على أنه نسخة صادقة منه ... ألا ليت القراء كانوا فى مثل شغفك بالقراءة وولعك بالاطلاع ووفائك للأدب .. » وحيال هذه العبارة النبيلة يجمل بى أن أنيخ مطية الوقوف بعض الوقت ... لأسوق إلى رحابك هوادى الشكر وأطلق فى جوائك طيوب الثناء ؛ ولأن جنين الإجابة على سؤالك السالف إنما يكمن فى أحشاء هذه العبارة النبيلة ؛ وبالأصح فى نقيض هذه العبارة النبيلة . أجل يا سيدى ؛ فلو عرفت أن حرارة إحساسى بعدالة قضيتنا نحن القراء كانت أشد تلهبا فى أعماق وأقوى اشتعالا فى مسارب ذاتى من شعورى بحرارة الدفاع نفسه ، لأدركت لماذا آثر هذا القارئ الصديق أن يخفى إسمه . أما أنت فقد كنت تنظر إلى المسألة من الزاوية الأخرى .. كنت تراها قضية خاسرة أحسنت الدفاع عنها ، فلا غرو أن تشيد بالدفاع ، وإن أيدت الحكم ، وأن تطرى المدافع ، وإن أدنت المتهم .

ربما كنت قارئا مجدا ، بل ربما كنت أكثر من قارئ فى بعض الأحايين ، ربما كنت ذلك القارئ الذى يقتات من ثمرات السماء — أعنى ثمرات الفكر — أكثر مما يقتات من ثمرات الأرض ، ويتناول من وجبات المطالعة والتثقيف أكثر مما يتناول من وجبات الطعام والشراب . وربما كان هذا واقعا من الواقع وحقيقة من الحقائق ، إلا أن هنالك واقعا آخر وحقيقة أخرى يجريان فى ظنى مجرى العقيدة الراغلة واليقين المتغلغل ؛ هنالك آلاف غيرى من القراء المثاليين ممن يتضاءل بجانب شغفهم بالقراءة شغفى ، وولعهم بالاطلاع ولعى ، ووفائهم للأدب وفائى . لشد ما يحز فى نفسى ويدهشنى إذن أن تقول «.. وحتى الأسواق الخارجية التى كنا نعتمد عليها فى الترويج للكتاب المصرى — وأعنى بها أسواق سورية ولبنان والعراق وشرق الأردن وفلسطين والحجاز — قد أغلقتها

وسحت دموع من جفونى غزيرة
كأن بدمعى بعض ماجاش فى فكرى

فقال ابن جنبى : إننى اليوم مزمع
إلى حيث أدرى من زمانى ولا أدرى

فما الحب أن تختار أو تملك الرضا
ولكنه ألا تقدر على أمر

وأن تطوى الأيام شوقا ولوعة
وتطوينا الأيام قهراً على قهر

... ...

وأقفر صدرى لا ربيع ولاشذا
ولا جدول يجرى ولا نغم يسرى

سوى أنة مكلومة ملؤها الجوى
تردد ما بين الترائب والنحر

... ...

... ومرت ليال لست أملك عدها
ولكنها أشقى ليالى من عمرى

وكان مساء لا يفيق كآبة
رأيت به قلبى يعود إلى صدرى

وخيما تحاماه الأساة مجرحاً
كأن به عيناً على حبه تجرى

دمشق — شهرالله سوقي

فى وجوهنا وزارة المالية المصرية » كأنما خلت الكنانة من رواد القراءة وطلاب المعرفة ، ونضبت الأذواق فى المشاعر وجفت الأرواح فى القلوب . إن من طائفة المطبعين خاصة ولا أقول المتعلمين عامة ، إن فيها آلافا وآلافا من أبناء هذه الطائفة وحدها . أى هم لهؤلاء — ولو بحكم الصنعة كما يقولون — غير انهالت على ثمرات العقول وتلقف ما تقذف به أحشاء المطابع ؟ أم أنهم لا يطالعون غير الكتب المدرسية وحدها ولا يعيشون إلا بها ولها ؟ أنا لا أصدق ، أو لعلى لا أحب أن أصدق هذا ، وإن تراءى إلى من أحد أبناء هذه الطائفة الكريمة نفسها . فلعله أن يكون واحدا مثاليا ينظر إلى غيره على أنه نسخة صادقة منه ... مثاليا فى طموحه القاصر وقصوره المعيب ولا قياس للشواذ ولا حكم للنادر .

يخيل لى يا سيدى العزيز ، بل أعتقد ، أن التسمية الصحيحة لأزمتنا هذه إنما ينبغى أن تكون « أزمة الكتب » لا « أزمة القراء » فالكتب هى التى تعانى أزمة الكساد ومحنة الركود ما فى ذلك ريب . أما القراء — قراء الكتاب وغير الكتاب — فلا يزالون على وفرة فى العدد وشغف بالقراءة وولع بالاطلاع ووفاء للأدب . وأعنى بالكساد هنا — كى أبعد عن قولى شبح التناقض — ذلك الكساد المادى على وجه التخصيص. ولن يكون القارىء بحال هو المسئول الوحيد عن هذا الكساد . فالكتاب أنفسهم مسئولون عنه متلبسون به متسببون فيه . فلقد أرشكوا — لأمر ما — لا يدعون للقارىء فسحة من الوقت يلقاهم فيها على صفحات كتاب ... لكثرة ما يزحمون من وقته ويشغلون من زمنه بالمقال العابر والرأى الطائر على صفحات الورق السيار .

ودور الكتب الحكومية وفروعها من المسئولين — فيما يخيل لى — عن أزمة الكتاب أيضا . فأنا أعرف عشرات من القراء لا ينفقون مليما واحدا فى شراء كتاب رغم شغفهم بالقراءة وولعهم بالاطلاع ووفائهم للأدب ، لأنهم يجدون فى هذه الدور بالمجان ما يكفيهم مؤونة الشراء ومشقة البذل ، ولا معتب على القارىء ولا ملام إن هو لجأ إلى تلك الطريق كى يوفر لنفسه ثمن القميص الحريرى المفهاف والرباط العنق الثمين فليس من السهل — كما هو الحال فى الكتاب — أن يستعير هذا القميص أو ذاك الرباط « استعارة داخلية أو خارجية » ولقد غدت هذه الأشياء المظهرية إحدى ، إن لم تكن أولى — ضرورات الحياة فى هذا العصر ... العصر الأمريكى ... أو عصر الدنيا الجديدة ، إن صحت هذه التعابير . سيدى . لست أعنى أن تغلق دور الكتب أبوابها — أستغفر العقل — ولكننى أرى ألا تتيح للقارىء الاطلاع على أى كتاب حديث الطبع قبل أن يمضى عام أو أكثر على عرضه فى الأسواق .

ودور النشر العامة ، أو لعلها المكتبات التجارية خاصة ، مسئولة بدورها عن هذه الأزمة. ذهبت مرة لشراء بعض الكتب من إحدى تلك المكتبات المنبثة بين الأعمدة القائمة على إفريز شارع محمد على بالقاهرة ، وما أن تعارفنا — صاحب المكتبة وأنا حتى أشعرنى إشفاقه على « ماليتى الضائعة » فى شراء الكتب ، وأردف هذا بفكرة سعيدة موفقة يضرب لى فيها عصفورين بحجر أن يعيرنى ما أرغب فى مطالعته أو نسخه من الكتب لقاء قروش معدودات . وبهذا — على حد قوله — يمكننى أن أطالع ستة كتب مختلفة بثمن كتاب واحد . ومعنى هذا أيضا ، معناه الآخر ، أن نعمل على كساد ستة كتب مختلفة كسادا ماديا بالغ الأثر قوى الوضوح .

أفلا توافقنى أنت إذن على أنها أزمة الكتب وليست أزمة القراء ، وأن التبعة ينبغى ألا تلقى على كاهل القارىء وحده وألا يتحمل فيها قسوة الحكم بمفرده . ولا أقل من أن نوجد له شركاء فى « التهمة » حتى تخف العقوبة عليه حين تتوزع عليهم .

وبعد ... فكم أود ياسيدى أن تنتهى إلى لقاء فى الرأى على قارعة هذه المسألة ... يفضى إلى لقاء آخر قريب على صفحات

كتبك . كم أود أن أقول لك : ليس من الخير ، ولو بالنسبة إلى أصدقائك العديدين فى مختلف أقطار العروبة ، أن ترحى طبع ما لديك من كتب ، حتى يكون للأدباء نقابة أولا يكون . ليس من الخير أن تعيش حياتك كلها فى عالم الواقع حتى لا تفقد عالم الخيال ! وما أجمل الخيال ، ما أجله من عالم ! ليس من الخير أن تشكو من قراء الكتب ، كتبك أنت بالذات . ليس من الخير أن تشفق من لقائهم فى مقبل الأيام ، فانهم — كما قلت لك فى رسالتى الأولى — على استعداد تام ، وبرهانهم فوق أيديهم ، أن أن يشتروا منك كل كتبك منذ الآن . قبل طبعها . فهلا أعنتهم على تحقيق بغيتهم واستجابة طلبتهم ؟

كلما أرسلت النظر إلى رفوف المكتبة العربية ، حيث تشع منها هذه الأسماء اللوامع : طه حسين ، العقاد ، هيكل ، أحمد أمين ، الزيات ، الحكيم ، تيمور ؛ طالعنى فيها رف شاغر يوحى اليك ويهيب بك أن تسد رمقه وتروى ظمأه وتملأ فراغه .

وسلاما لك ، ممن يشرفه أن تعرف إسمه ، وتحية ومحبة :

من القارئ

« طهطا » عبد الرحيم عثمان صارو

مرة أخرى أشكر للأستاذ الفاضل ثناءه ووفاءه ، وأقول له إننى حين أشرت إلى إسمه فى العدد الماضى « من الرسالة » ، لم أكن قد تلقيت بعد رسالته الثانية .. ومن هنا كانت الإشارة فى صيغة السؤال المترجح بين الشك واليقين فى انتظار الجواب . أما وقد ثبت أن القارئ الصديق هو الشاعر الرقيق ، فلا حرج بعد الآن إذا ما وجهت إليه الحديث نقاشا وتحية !

ماذا أقول للأستاذ عبد الرحيم وهو يدافع عن القراء بقلبه وقلمه ؟ ثق يا أخى أننى أنقل فيما أكتب عن الواقع ، وأنهم وبين يدى الدليل ، وأحكم ونصب عينى شهود الإثبات .. فالواقع الذى لا مرية فيه أن الكتب فى مصر مكدسة لا تجد القارئ ، والدليل الذى لا نقض له أن المكتبات خاوية لا ترى الزائر ، وأن شهود الإثبات على صدق هذا القول أحياء يرزقون ! هل يتفضل الأستاذ الشاعر فيزورنى يوما فى القاهرة لأطلعه على كل عجيب وغريب ؟ سأمضى به أولا إلى جامعة فؤاد الأول ؛ تلك الجامعة التى تعد مركز الفكر وموئل الثقافة ومناط الأمل ، فى تخريج جيل يدرك أثر القراءة فى بعث العقول وشحذ المواهب وصقل الآفاق والأذواق. سأمضى به إلى هناك ، وعليه أن يختبر الأيدى التى تحمل الكتب والأذهان التى تختزن العلم ، والمثل العليا التى تتطلع إلى لقاء الحياة. سيجد الأيدى خالية إلا من الكتب المقررة ، والأذهان فارغة إلا من بقايا المحاضرات ، والمثل العليا الفكرية روح وتغدو حول سهرة المساء ! إن كل همهم هو أن ينظروا فى هذه الكتب ويحدها لينجحوا فى الامتحان ، وأن ينجحوا فى الامتحان ليظفروا بالوظيفة ، وأن يظفروا بالوظيفة لينعموا بهدوء الفكر وراحة البال !

أين نبحث عن القارئ المثالى ، قارئ الكتاب النفيس ، إذا لم نبحث عنه بين جدران الجامعة ؟ هل نبحث عنه فى الطرقات أم نلتمسه هناك بين الجالسين فى القهوات ؟ إن عابر الطريق فى مصر وقد يكون من خريجى الجامعة — يمر وهو فى طريقه بمكتبة على اليمين وأخرى على اليسار ، فلا يكاف قدميه مشقة الوقوف ولا عينيه عناء النظر ، الى تلك العيون الرانية اليه من وراء الزجاج .. عيون الأدب الخالد والفن الجميل ! وإن « زبون » القهوة فى مصر — وقد يكون هو أيضا من خريجى الجامعة — يمر عليه بائع الكتب وهو جالس فى مكانه ، فيفضل عصير الليمون على عصير الذهن ، وتصفح الوجوه على تصفح الأفكار ، ومحبة « الدومينو » و « الشيشة » على محبة العقاد وتوفيق الحكيم !!

هذا هو حال القارئ فى .. فهل يدهش الأستاذ الشاعر إذا قلت له إننا نعتمد فى الترويج للكتاب المصرى على البلاد العربية ؟ أؤكد له أنها حقيقة لا تقبل الجدل ، وأننى لا أحس شيئا من الحرج وأنا أعلنها سافرة بغير قناع ! إن الكتاب المصرى الذى يطبع منه الناشر عددا من الألوف ، يخصص منه الجزء الأكبر لأسواق سورية ولبنان والعراق وغيرها من أقطار العروبة ، وتخصص البقية الباقية لمصر حيث يوجد الأستاذ الفاضل وغيره من القراء المثاليين !

وأعود إلى الجانب الآخر من جوانب المشكلة لأقول للأستاذ

عبد الرحيم ، بالله لا تذكر طوائف الملمين فى مثل هذا المجال . لو كان المعلم المصرى يقرأ لأصبح الطالب المصرى صورة أمينة لأستاذه . هل تصدق أن معلما له حظ من الثقف بالقراءة والولع بالاطلاع والوفاء للأدب ، ثم لا ينعكس أصداء نفسه وأضواء حسه على أفكار طلابه ؟ لو عثرت على الطالب الذى يقصر زاده على ثمرات الفكر ومتاعه على نفحات العلم وصحبته على صفحات الكتب ، فاعلم أن من ورائه الأستاذ الذى قيس له من فكره وأفاض عليه من علمه وفتح لقلبه وعينيه مناقذ الضياء ! ولكن أين هذا الطالب ؟ .. إبحث ياصديق عن النتائج فى ضوء المقدمات !

بعد هذا يريد الأستاذ عبد الرحيم أن يثبت أن الأزمة متعلقة بالكتب وليست متعلقة بالقراء ، لأن قارئ الكتاب موجود لا شك فى وجوده ، وبخاصة فى دور الكتب العامة حيث يجد هناك ما يكفيه مشقة البذل ومؤونة الشراء .. إن ردى عليه هو أن أسأله : كم عدد المترددين على أماكن القراءة والاطلاع وكم عدد المترددين على أماكن اللهو والمتاع؟ إن شيئا من المقارنة لكفيل بأن يضع أيدينا على هذه الحقيقة الناصعة ، وهى أن عدد الوافدين إلى دور الكتب إذا ما قيس بعدد المتسكعين فى الطرقات ، لأسقطناه فى معرض النسبة المئوية من كل حساب .. ثم بماذا نخرج من هذا الدليل الذى يسوقه إلينا ليثبت لنا أن قارئ الكتاب موجود ؟ قارئ الكتاب بلا مقابل ؟ أفى هذا ما يشجعنا نحن الأدباء على أن ندفع إلى المطبعة بما لدينا من ثمرات العقول ؟ سمها إن شئت أزمة كتب ، ثم أرجعها على التحقيق إلى أزمة القراء ، فما أكثر ما يعج به هذا البلد من أزمات !

ثم هذا الاقتراح الذى يعرضه الأستاذ الشاعر ليحل به الأزمة ويقضى المشكلة ويحسم النزاع ، وهو ألا تقدم دور الكتب العامة لروادها أى كتاب جديد قبل مضى عام أو أكثر على عرضه فى الأسواق .. إن دور الكتب يا صديق تزخر بها مدينة مثل باريس حيث يقصد إليها الألوف من كل مكان ، ومع ذلك فإن تلك الدور لم تقلل من عدد المقبلين على اقتناء الكتب الأدبية ، وحسبك أن بعض كتب « سارتر » قد طبع ثلاثا وتسعين مرة !! أريد أن أقول للأستاذ الفاضل إن الذين يريدون أن يقرأوا لا يحول بينهم وبين القراءة حائل .. وإن القارئ الحق هو الذى لا يكتفى بقراءة الكتاب منقولا من أحد الرفوف أو مستعارا من أحد الأصدقاء ، ولكنه الذى يبذل من وقته ليستوعبه وينفق من ماله ليقتنيه ، حتى يصبح ولديه مكتبة يرجع إليها من حين إلى حين ، ليجد فى ضيافتها المثلى غذاء العقل والقلب والروح !

وليس من شك فى أننى لا ألقى التبعة كلها على القراء ، لأن هناك بعض العناصر المسئولة عن هذه الأزمة التى استفحل أمرها وعظم خطرها واستعصت على كثير من الحلول .. ولقد عرضت لهذه العناصر منذ عام مضى على صفحات الرسالة ولا أحب أن أعود إليها من جديد ، ولكن الذى يهمنى أن أعود إليه هو قول الأستاذ عبد الرحم بأن الكتاب يحملون شيئا من هذه التبعة ، لأنهم يصرفون القراء عن قراءة الكتب بكثرة ما يشغلون من وقتهم بالمقال العابر والرأى الطائر .. يا أخى ان المكتبات عامرة بكتب الشرق والغرب يدفع بها إليها الكتاب من هنا وهناك ، ولكن القراء — كما قلت لك من قبل — هم الذين « يربحهم » أن ينفقوا عشر دقائق من وقتهم فى قراءة مقال ، وقرشين من مالهم ثمنا لمجلة تحمل إليهم هذا المقال . ثم يضيقون كل الضيق بصحبة كتاب نفيس ، لأنهم يضنون عليه بالوقت الذى لن يتعدى الساعتين وبالقروش التى لن تزيد على العشرين .. إن أعصاب الأدباء بخير يا صديق العزيز ، ولكن المسئول هو أعصاب القراء !!

أما ذلك الرف الشاغر الذى يومئ إلى من رفوف المكتبة العربية كما تقول ، فليس هناك بد من ملئه فى يوم من الأيام . كل ما أرجوه هو أن يكون الغد القريب لا الغد البعيد هو موعدى معك ومع غيرك من الأصدقاء .. وأحبب به من لقاء !

مباراة شعرية وأخرى نقدية :

مباراة شعرية جرت بين الشعراء : شاهين وميشال معلوف وفوزى وشفيق معلوف ، فى دار شقيق الأولين وخال الآخرين ، بمناسبة سقوط فنجان قهوة من يد قرينته إيزابل معلوف ربة الدار ، فجعلت للفائز الأول جائزة ثمينة وهى ساعة ذهبية .. وفيما يلى أبيات الشعراء الأربعة التى تقدموا بها إلى المباراة » .

٣٥ ، ٤٠

قال شاهين :

ثمل الفنجان لما لامست شفتاه شفتيها واستمر
وتلفت من لظاه يدها وهو لو يدري بما يجني اعتذر
وضمته عند ذا من كفها يتلوى قلقا أنى استقر
وارتمى من وجده مستعطفا قدميها وهو يبكي فانكسر !

وقال ميشال :

عاش يهـــواها ولكن في هـــواه يتكتم
كلما أدنتـــه منهـــا لاصق الثغـــر وتم
دأبه التقبـــيل لا ينفك حتى يتحطم !

وقال شفيق :

إن هوى الفنجان لا تعجب وقد طفر الحزن على مبسمها
كل جزء طار من فنجانها كان ذكرى قبلة من فمها

ونظر فوزي المعلوف إلى الفنجان فإذا هو لم ينكسر فقال :

ماهوى الفنجان مختارا فلو خيروه لم يفارق شفتيها
هي ألقته وذا حظ الذي يمتدي يوما بتقبيل عليها
لا ولا حطمه اليأس فها هو يبكي شاكيا منها إليها
والذي أبقاه حيا سالما أمل العودة يوما إليديها !

هذه المباراة الشعرية قدمها إلى صديق أديب ، منتظرا رأيي في شعر الشعراء الأربعة ، وحكمي لأيهم بالسبق والتفوق ، على أن يكون هـذا الحكم مستندا إلى ما في « الأداء النفسي » من حيثيات .. أما أنا فقد كونت الرأي وأصدرت الحكم ، بعد أن أرسلت الذوق وراء كل كلمة ، وحشدت النفس خلال كل بيت ، وأطلت المراجعة بعد كل مقطوعة . وقبل أن أسجل هذا الرأي على صفحات الرسالة ، أود أن أستمع إلى الرأي العام الفني ممثلا في قراء العربيـة ما بين كاتب وشاعر ، لأنني أريد أن أجعل من هذه المباراة الشعرية مباراة نقدية !

وأحب أن أقول لقراء الرسالة هنا وهناك ، إنني في انتظار نقدهم لهـذا الشعر ، على أن يكون حكمهم للشاعر الأثير لديهم مشفوعا بأسباب التفضيل والإيثار . « وإذا كان الفائز الأول من الشعراء قد ظفر بساعة ذهبية ، فإن الفائز الأول من النقاد سيظفر من هذا القلم .. بكلمة ذهبية !!

على محمود طه في يوم ذكراه :

يوافق الأسبوع القادم ذكرى مرور العام الأول على وفاة شاعر مصر الحديثة ، وشاعر العروبة الخالد ، الصديق العزيز الأستاذ علي محمود طه رحمه الله . وفي مثل هذه الذكرى الثالية تخفض الأقلام حدادا على العبقري الراحل ، وتحني الرءوس شجنا على الشاعر الفنان . ولكن العزاء الذي يملأ المكان الشاغر في دنيا الشعر ، هو أن القيثارة المحطمة ستظل تبعث أنغامها إلى الأبد ، فتحيل الموت إلى حياة ، والصمت إلى غناء ، والذكرى إلى خلود !

وفي الأسبوع المقبل أقدم إلى الروح المطمئنة إلى جوار الله .. همسة القلب وتحية القلم .

أنور المعداوي

اعلان

تقبل عطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة سكرتير عـام جامعة فؤاد الأول بحدائق الأورمان بالجيزة لغايـــة الساعة الثانية عشر ظهر يوم ٢٠ ـ ١١ ـ ١٩٥٠ عن توريد كتب لكلية دار العلوم .

وترسل العطاءات إما بالبريـــد الموصى عليه أو توضع في صندوق العطاءات بإدارة الجامعة ويمكن الحصول على الشروط مقابل دفع مبلـــغ ١٥٠ مليما يضاف إليه مبلغ ٣٠ مليما أجرة البريـــد وتقدم الطلبات على ورقة تمغة من فئة ثلاثين مليما .

٦٥١٤